قراءة في مجموعة أشعار الحياة للسيد محمد محمد صادق الصدر

أ.د. رحيم خريبط عطية الساعدي

مركز دراسات الكوفة / جامعة الكوفة

المقدمة:

سيدرس هذا البحث "مجموعة أشعار الحياة" للسيد محمد محمد صادق الصدر، وهي أشعار نظمها السيد ليسجل الحياة من وجهة نظره. وتكون فقرات البحث على النحو الاتي: يدرس موضوعات الشعر في هذه المجموعة واشتملت على مديح الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وآل بيته الكرام، وشعر العرفان والتوسل، وفيها تشطير لشعر آخرين وتخميس، وعني البحث بجانب من هذا الشعر، يتمثل بالشعر المنثور، إذ يعد نقلة قوية للشعر النجفي والعراقي والعربي، فهي قد غيّر من "الرتابة" التي ظلت ملازمة لهذا الشعر طوال قرون عديدة .وتطرق البحث في التمهيد الى قضية الشعر التعليمي، إذ أن الرجل عالم من العلماء، فطبيعي أن يلقي علمه بظلاله على ما ينظمه، والدليل على ذلك انه وظف ما قرأه ولا سيما آيات القران الكريم في أشعاره .وتعد هذه قراءة في مجموعة أشعار الحياة أو بالأحرى ما وصل منها، أرجو الله تعالى أن يوفقني الى السداد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله الطيبين.

التمهيد

سأتجنب الحديث عن حياة السيد محمد محمد صادق الصدر وبيئة النجف التي تخرج بها؛ لان حياته معروفة والبيئة التي ينتمي اليها معروفة ايضا، ولكني احيل الى المراجع التي تعرضت لهذين الموضوعين وأفاضت في الحديث عنهما، منها: حركة الشعر في النجف الاشرف وأطواره خلال القرن الرابع عشر الهجري دراسة نقدية

للدكتور عبد الصاحب الموسوي ، والحياة الفكرية في النجف الاشرف للدكتور محمد البهادلي ، والمفصل في تاريخ النجف الاشرف للدكتور حسن الحكيم ، وتاريخ النجف الاجتماعي للدكتور عبد الستار شنين الجنابي ، وغيرها كثير وسأركز على شعر العلماء .

ان شعر العلماء يختلف بشكل أو بآخر عن الشعر بصفته الرسمية ، فلم يكن العالم منصرفا الى الشعر انصرافا تاما ، بل هو يصدر عن قلب العالم بين حين وآخر(١) . ولانتوقع من عالم أن يفوق الشعراء المتفرغين الى الشعراو الموهوبين الذين كان الشعر- بكل أنواعه يشكل هما لهم وانه يأخذ جل وقتهم ولا نراهم يحسنون فنا آخر أو صنعة أخرى غير صنعة الشعر – على رأي ابن سلام والجاحظ من أن الشعر صناعة – فعند ابن سلام الشعر صناعة كسائر انواع الصناعات منها ما تثقفه العين ومنها ما تثقفه اليد ومنها ما يثقفه اللسان(٢) . ومعنى ذلك ان النقاد قد نظروا الى الشعر نظرة الصناعات الاخرى التي تتطلب اتقانا وتفرغا دائما والسير على مذاهب الشعراء وألا ينظر الى مايقوله الشاعر على انه حلال وحرام ولا مكان للأخلاق هنا . بل ذهب النقاد الى أكثر من ذلك إذ رأى الاصمعي ان الشعر بابه الشرفإذا دخله الخير لان ! ومعلوم ان القرآن الكريم قد قال ((والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وانهم يقولون ما لايفعلون الا الذين امنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون))(٣)

فقد استثنى منهم المؤمنون بانهم لو يكونوا منهم بل يصدقون ولايهيمون بكل فن من الفنون سواء أكانت مقبولة أم لم تكن مقبولة . فالشعر كونه فنا ينبغي له أن يخوض في كل شيء بغض النظر عن المجتمع وقيمه . وكل هذا يرتبط بنزول

الوحي وبزوغ فجر الاسلام . إذ يتحرج علماء المسلمين – ولا سيما الفقهاء – من الخوض في أفانين يعدونها من الممنوعات وغير المسموح التصريح بها . كالغزل أو شرب الخمر . مع أننا لانعدم وجود شعر للعلماء فيه من هذا النوع من الشعر ولكنهم يصرفونه الى جهات أخرى على سبيل الرمز مثلا . ولانعدم كذلك وجود الشعر الصوفي و " الخمرة " إذ فسرت مثل هذا التفسير . وان الذي لاشك فيه ان هؤلاء العلماء قد وجهوا الشعر توجيها جادا وقد تحدث حازم القرطاجني في مباحث " الاسلوب " بما سماه : المنهج الاول في الابانة عن طرق الشعر من حيث تنقسم الى جد وهزل ، وما تعتبر به أحوالها في كل ذلك من حيث تكون ملائمة للنفوس أو منافرة لها إذ قال : ((فأما طريقة الجد فهي مذهب في الكلام تصدر الاقاويل فيه عن مروءة وعقل بنزاع الهمة والهوى غلى ذلك))(٤)

وهذه الفكرة أصلا مأخوذة من أرسطو حين قسم الشعر على مأساة وملهاة وأرجع الشعر كله الى هذين القسمين الكبيرين . وقد أخذ علماء العربية هذه الفكرة من أرسطو وقسموا الشعر – على غرارها – الى مديح وهجاء وتتبع الاغراض الاخرى هذين الغرضين الكبيرين . وقد دأب علماء العربية والفقهاء على نظم الشعر ونظم علوم العربية والفقه وما يتعلق بالنبات والحيوان شعرا ؛ لكي يسهل على الشداة حفظها والانتفاع منها ؛ لان المنظوم غير المنثور فهو اشد حفظا وعلوقا بالذاكرة . وقد قال السيد الصدر صاحب " مجموعة أشعار الحياة : ((قضيت حوالي أربعين عاما من عمري وأنا ناظم للشعر ، ولا أقول شاعر ؛ لان الشاعر أحد أحد شخصيتين : إما من يكرس اهتمامه بشعره ويجعله الاهم في حياته ، وإما ذاك الذي اتخذه صبغته الاجتماعية ، يشارك في المدح والذم . وفي مختلف المناسبات . أو يطبع الدواوين . ولم

أكن طيلة حياتي شيئا من هذا القبيل ، ولا طرفة عين بعون ربي العزيز الحميد))[٥]

إذا الرجل ناظم وأراد من هذا النظم الابتعاد عن الصفات التي نهى اللّه عنها في الشاعر . وقال السيد مقتدى الصدر في تقديمه هذه المجموعة وما احتوت من أغراض تتضمن ((الجهاد والتضحية والتكامل في درجات الاخرة وأرقى المعاني والكلمات العرفانية والدرجات الالهية التي لا ينالها ا لا ذو حظ عظيم . مضافا الى احتوائه على كثير من النصح والارشاد والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وخصوصا مع حاجة المجتمع اليه في ظل الهجمات (الصليبية) والغربية والعلمانية وغيرها كثير ضد إسلامنا الحبيب ومجتمعاته التي باتت تفتقر الى المرشدين والامرين بالمعروف والناهين عن المنكر))[٦]

إذا هي أشعار تدخل في شعر الاغراض الاجتماعية عموما وهذا النوع من الشعر الاجتماعي وجد في الادب العربي من قديم وتطور حتى وصل الى القرن الرابع للهجرة وأخذ يتسع ودخل فيه شعر الصداقة والصديق وأغراض اخرى .

أولا : موضوعات مجموعة أشعار الحياة :

تنوعت الاشعار في هذه المجموعة مابين العرفان ، ومديح الرسول صلى اللّه عليه وأله وسلم وأهل بيته عليهم السلام . والتوسل ، وفلسفة الالم وخواطر بين النور والظلام ، وفي أبنائه ، وفي القضايا الاجتماعية ، وفي تحية الرابطة الادبية ، وفي تشطير لقصائد مختلفة وفي موضوعات مختلفة وتخميسها وفي الرثاء وفي المناجاة وفي تغيير قصائد من حرف روي الى اخر وفي زيارته الى ايران ووصف الاضرحة وتسجيل ماشاهده متمما ذلك بالحديث عن ىالاماكن التي رجع اليها في العراق ، وغير ذلك .

الحب الالهي : وللسيد في هذا شعر يتحدث فيه عن الحبيب والصباح والسهر وحلو الحديث . بلغة سهلة ربما يظن ظان انها كتبت لحبيب معين ، وما هي في الحقيقة

الا من فيض معرفته العرفانية على غرار الصوفيين ورموزهم في الخمر والحب ((في سبل الخروج من مناطق المواضعة والمألوف ...وعندها تتحرر اللغة من عوالق ماضيها ، ولا يبقى منها الا ما أراده المبدع وانتدب الرمز لاجله))(٧)

وفي كل هذا يقوم الشاعر الذي ينتهج هذا النهج باستعمال لغة تزيح معانيها المعجمية الى معان أخرى(٨) . يقول من قصيدة رائية بعنوان " أشواق ":

حبيبي بوجهك يحلو الصباح وتحلو النجوم ويحلو القمرْ
ويحلو المكان ويحلو الزمان ويحلو الحديث ويحلو السمرْ
ويحلو الصعود ويحلو النزول ويحلو النهار ويحلو السهرْ
ويحلو النجاح ويحلو الفلاح ويحلو النعيم وتحلو سقرْ
ولولا وجود بين القلوب لما هدأت والفؤاد استقرْ(٩)

وهذه الابيات نظمت بلغة واضحة لا تحتاج الى معجم لفهمها ، ومع ذلك فلا تعد من شعر الغزل ، بل هي تؤخذ على سبيل الرمز والشعر العرفاني الذي يخاطب اللّه سبحانه وتعالى مخاطبة المحبوب . ولكنك حين تستمر في قراءتها تشعر بان المخاطب لم يكن حبيبا عاديا ، بل هو اللّه سبحانه بصفاته وبمقدرته :

ولولا كلامك في الناطقين لساء الكلام وماتت عبرْ
ولولا حظورك في الغافلين لما وجد السهم يوما مقرْ(١٠)
بنشر حديث عاش الحياة بلطف بريقك خاض العبرْ
لأنت الصمود لهذا الضعيف وأنت الشفاء لمن قد غبرْ
وأنت اللطيف الذي لا يريم عن اللطف أكرم به مدخرْ(١١)

وهكذا يعدد صفات اللّه سبحانه وتعالى في الابيات التالية ، مما ينبئ بانه يتحث عن حبيبه الاثير الذي بيده الشفاء والدواء ، ولا حبيب غيره ، فكل حبيب يكون "

مضطجرا " على حد تعبيره ، وهو النعيم والكريم والكفيل ، ولولا هذا الحبيب " اللّه " لانفطر القلب ومات الانسان ، والقصيدة جرت على حرف الروي الراء ، ووزن المتقارب ، وتذكرنا بقصيدة أبي القاسم الشابي التي أولها :

إذا الشعب يوما أراد الحياة فلا بد أن يستجيب القدر

ولا سيما قوله :

فأدرك سقيما عليل المزاج طريح الفراش سجين الحفر(١٢)

إذ قال الشابي :

ولو لم يتعلم صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر(١٣)

لكن أجواء قصيدة الصدر تختلف عما أشاعته قصيدة الشابي من أجواء ثورية وكانت بمثابة نشيد للأجيال . وقصيدة الصدر – على قرب مأخذ ألفاظها – تعد من الشعر الرمزي على ما وجهته من تصور الرمز وما يذهب اليه العرفانيون في لحديث عن محبوب وهم يقصدون اللّه سبحانه وتعالى وهم يلتقون بالصوفيين في هذا الاطار ، على غرار ما نجده عند ابن الفارض مثلا .

المديح النبوي :

ان تاريخ المدائح النبوية مرتبط بالدرجة الاساس بحقبة العصور المتأخرة أو ما سمي بالعصر الوسيط إذ اتجه الشعراء الى الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم متوسلين به – بعد أن أخذ عليهم الاعداء زمام المبادرة – وذهبت دولة الاسلام العظيمة . ولكن البديعيات – وهي قصائد قيلت في مدح الرسول الاكرم صلى اللّه عليه وسلم – تتضمن فنا أو أكثر من فنون البديع تحولت الى تقعيد لفنون البديع في العصر الوسيط . وفي مجموعة أشعار السيد محمد الصدر لا نجد كثيرا من المديح النبوي – على عناية السيد بالحديث عن النبي الاكرم صلى اللّه عليه وآله وسلم – وربما

يعود السبب الى ضياع قسم كبير من مجموعة أشعار الحياة . ونجد " تخميسا " لقصيدة عبد الباقي العمري في مديح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم التي أولها:

تخيّرك الله من آدم ولولاك آدم لم يخلقِ(١٤)

وأقتبس من التخميس الآتي :

تقدست من حاكم عالم وبوركت من نيّر دائم
وعظمت من قيّم قائم (تخيرك الله من آدم ولولاك آدم لم يخلق)
لنورك قد خضعت في المضي جميع الخلائق في المقتضي
به صلب آدم منها حضي ن (بجبهته كنت نورا مضي كما
ضاء تاج على مفرقِ(١٥)

وفي مطلع العمري مفارقة تتمثل في أن الله تخيّر النبي من آدم أي من ولد آدم ولو وجود النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يخلق الله آدم !

مديح أهل البيت :

وتأخذ مدائحه في أهل البيت حيزا أكبر من مجموعة أشعار الحياة . وهي لم تكن بمجمله قصائد مستقلة ، بمعنى أنها خلت من التربيع أو التخميس أو التشطير ، منها قصيدته " المناجاة العلوية " وهي في تربيع القصيدة المنسوبة إلى الامام علي :

توجّهت نحو الحق من أوسع الفلا لأجعل من ربي ملاذا ومـــــــــوئلا
لك الحمد يا ذا الجود والمجد والعلا تباركت تعطـــــــــي من تشاء وتمنع
فوجهت وجهي نحو ربي ومعقلي وصيرت أرض القدس في النور منزلي
إلهي وخلاقي وحرزي وموئلي إليـــــــك لدى الأعسار واليسر أفزع(١٦)

وهكذا تستمر القصيدة بيت للسيد بروي اللام وبيت للإمام علي بروي العين ، شطران في الاعلى ، وشطران في الاسفل لذلك قيل عنه تربيع .

وقال في مديح أهل البيت الخمسة من " تشطير " مقطوعة لأبي يعقوب النصراني (من شعراء القرن السادس للهجرة) :

ياحبّذا دوحة في الخلد نابتة زادت على السدرة العصماء في الاثرِ
وليس طوبى سوى ظلّ لوارثها (ما مثلها نبتت في الخلد من شجرِ)
(المصطفى أصلها والفرع فاطمة) الزهراء شافعة للشيعة الغررِ
فخر النساء وأنوار السماء غدت (ثم اللقاح عليّ سيد البشرِ)
(والهاشميان سبطاها لها ثمرٌ) ما مثله ثمرٌ في غمرةِ العمرِ
وسيّدانِ لشبان الجنان همـــــا (والشيعة الورق الملتف بالثمرِ)[١٧]

والتشطير الذي تقدم والتخميس والتربيع كلها تعطي انطباعا على الحقبة الزمنية التي نظمت فيها هذه الاشعار ، وتعد امتدادا الى حقبة العصور المتأخرة وما بعدها في الحقبة العثمانية وبدايات القرن العشرين ، وهي حقبة تؤشر على ان الذوق العام كان يتجه هذا الاتجاه في نظم الشعر وراح الشعراء العرب والعراقيون – ومنهم سعراء النجف – يتجهون هذا الاتجاه ، فالشاعر يعتقد ان هذا الاتجاه هو الفن بحد ذاته فشعر الروضة بان تقرأ البيت طولا وعرضا وعموديا وأفقيا كان من طموح الشعراء وكذلك التاريخ الشعري ، الذي نظم فيه السيد الصدر بحساب الجمل معتمدا على:

التاريخ الهجري :

ويستخرج منه تاريخ المناسبة التي نظم فيها فلكل حرف رقم . يقول مثلا في تارخ حفيده (علي مؤمل الصدر) من قصيدة سماها : علي الدر والذهب المصفى :

علي بحبه الوجد ان يصفى علي بنوره الأنوار تخفى
وخمر لماه في الافواه حلو بسكرته إذا ما كان صرفا

وقلب في محبته عميق لعمرك من لظى الآثام يعفى
وجسم من عرى الدنيا سقيم بلقياه نرى الامراض تشفى
وقلبي في مودته سريع أمام الخصم أصلاما تخفى
سميّ إمامه لقبا عليًا به في العروة الوثقى تكفّى
سيعلو شأنه شرفا ونبلا من الادران والبلوى تصفى
حفيد إمامه أرخت زرع علي الدر والذهب المصفّى(١٨)

فبعد كلمة " أرخت " يحسب التاريخ عن طريق حساب الجمل فيكون :

١٧٧ + ١٠٠ + ٢٣٥ + ٦ + ٧٣٨ + ٢٥١ = ١٤١٣ . فيكون تاريخ الولادة هنا بالسنة الهجرية . وإنك حين تقرأ التاريخ الذي يؤرخ به السيد بعض المناسبات ، وغيره من الشعراء ، إنما هم ينطلقون من طريقة شملت معظم الشعراء الذين عاشوا الاجواء التي صار الشعر فيها لايمثل رسالة تعبر عن آلام الامة ، بل هي تشمل المناسبات التي تقال في وقتها ولكنها تبقي على تاريخ المناسبة . فعندئذ تكون أهميتها من هذا الباب . وثمة أهمية أخرى لها تتمثل في صنع ما يشبه "الارشيف" فهذه الامة العربية عرفت بالشفاهية ولم تعن بحفظ تراثها قبل عصر التدوين وحتى بعد هذا العصر ؛ ولذلك فقدنا من تأريخنا المشرق كثيرا من الكنوز شعرا ونثرا . وظلت كلمة أبي عمر بن العلاء عن الشعر العربي : ما جاءكم من الشعر الا أقله .

الشعر المنثور

لقد فاجأنا السيد بهذا الشعر ، حينما وجدنا شعرا على هذه الطريقة التي تعد من محاولات التجديد الجذرية في الادب العربي الذي ظل لقرون طويلة وهو يسير على سنة السابقين من شعراء الجاهلية .ونحن نعلم أن هناك محاولات عديدة من أيام صدر الاسلام حينما قال حسان بن ثابت : لقد قال ابني شعرا عندما أخبره بان طائرا

لسعه ، فقال له صفه لي ، قال : كأنه حبرة ! ثم عصر الامويين وتلاه العصر العباسي ومحاولات بشار وأبي نواس وأبي العتاهية ، وحين سئل أبو العتاهية بانه يخرج على العروض فقال : أنا أكبر من العروض . ومحاولات رزين العروضي والاندلسيين وغيرها . والحق ان ك هذه المحاولات لم تكن جذرية تمس الشعر وزنا وقافية ، والمحاولة الحقيقية هي التي تمثلت في قصيدة النثر – التي يمكن أن تعد مشاركة السيد الصدر منها –أوهي من الشعر المنثور والشعر المنطلق والشعر المرسل والشعر الحر" أو شعر التفعيلة" وهذه المشاركة تستحق الوقفة والتأمل ، لا لأن السيد نظم عليها ، بل لانها محاولة جدية لتغيير مسار الشعر العربي الذي تعودت عليه الاذن الموسيقية ، ويحتاج الى ثقافة عالية تعوّض فقدان الايقاع الصفيق الذي تعودت عليه أجيال العرب الشعرية . وأرى أن نظم السيد على هذا النوع من الشعر يمثل قفزة نوعية له ولمسيرة هذا الشعر ، علما أنني وجدتشعراء النجف قد أبدعوا في قصيدة النثر والشعر المنثور منذ وقت مبكر ، وهذه الخاصية تستحق الاشادة والتنويه . وتسلط الضوء على هذه المدينة التي ظلت – فيما يبدو – بعيدة عن الاضواء .وإن نظم السيد – وهو رجل عالم يرتدي العمة ، وأصبح زعيما للحوزة العلمية في النجف الاشرف ، وواحدا من مراجع الدين الكبار – يمثل إمكانية تؤرخ للشعر بعد السيد الحبوبي وامتدادا له ولشعره الذي عرف بالاريحية – مع أنه كان قائدا للمجاهدين – فمثل هذا التوجه يبعد ما يظن من أن رجال الدين يكتفون بالفقه ولم يشاركوا المجتمع في وجدانه وأحاسيسه . يقول من قصيدة سمّاها " انقلاب " :

في زوايا من زوايا التاريخ
أرى طفلا قابعا
ينظر إلى الكون الفسيح

من نافذة من نوافذ الوجود
فيشم شذى الازهار
ويسمع تغريد الاطيار
كأنه يسمع موسيقى عذبة
من وراء الغيب
فتلبس نفسه ثوبا من نور
وتغرق في بحر من الجمال
أما الازهار فحب
وأما التغريد فافتتان
وأما الازهار فجمال
وأما هذا النهر المنساب
بخفة ورشاقة
فموكب حور
وأما الكون كله
فروح وريحان وجنة نعيم
يسير القلب خلاله
بين أنغام تنشر الولاء
وأزهار تفتر عن إخلاص
وهنا
في هذه الزاوية المحطمة

من زوايا التاريخ
يقبع قلب
يكسوه السواد
وينخر فيه السوس
تقلص حتى ليبدو
قطعة قير
أو جلطة دم
يرى في قطرات المطر
حين تقبل شفاه الازهار
دموعا
تتقاطر على الخدود
وفي النسيم
حين يملا الكون منه رئتيه
زفرات
تطلقها خرائب البوم
وحسرات
تعصف بين أكوام القبور
ويرى
في الكون كله
فحيح ثعبان

عجبا له

قد كانت نفسه تفيض بالشعر

ولان ينحت الشعر نحتا

وكان يتفجر ابتساما ولطفا

وقد اصبح اليوم

قطعة من الصخر الاصم

كان يفضي روحا

ودفئا على الجماد

والان

يضفي برد الموت

على كل الاحياء

كانت العاطفة تملؤه

وتجري في عروقه

مع دم الحياة

والان

جف دم الحياة

وأصبحت العاطفة في زمرة الأموات

قد طرحت في لحد

بين جنبات القلب

عجبا لهذا القلب

كيف اخترق تحت لهب الزمان

وامتصت نضارته

آلام الحياة

فأصبح كالعرجون القديم(١٩)

هذه القصيدة كتبت بتاريخ ١٣٨٢/٢/٢٤هـ . ولا شك انها قصيدة مبكرة بالقياس الى جنسها الشعري ، وهي تؤرخ الى ان هناك حركة شعرية متطورة في النجف ، والاهم من هذا ان هذا الرجل يمثل الاتجاه الفقهي ويمثل رجال الحوزة العلمية التي من المتوقع ان تأخذها العناية بالفقه وتشغلها عن الشعر وهمّ الشعر . ومثل هذا الامر يدعو الى الدهشة والى الاعجاب حقا بهذا الرجل المتنور .ويلاحظ الباحث – من خلال قراءة القصيدة – ثمة حكاية او قصة في ثناياها تجري باسلوب درامي متنامٍ تفيض منه كلمات منتقاة بدقة تنضح منها رائحة الازهار الزكية والطفولة . وقد أضفت ألفاظ الجنة والرياحين والجمال والافتتان ، في نسيج تمكن الشاعر من صوغه بدقة وانسابت الالفاظ مع الجمل بشكل يتلاءم وأجواء القصيدة . وقد تمكن الشاعر من نسج جدلية بين هذه الصورة المشرقة التي تتخللها الاريحية من كل جانب ، وبين صورة قاتمة سوداء ، يبدو انها ألحّت على الشاعر وفرضت نفسها عليه ، ونغصت عليه ماكان فيه من سرور . فأضحينا نلمح السواد والقبور والقار والسوس وطائر البوم – الذي يرمز الى الشؤم- في التراث العربي . فضلا عن الصخر والجماد والموت والعرجون القديم ، وكأننا بإزاء شاعر يرمز الى الحياة ودفئها ، ونضارتها وعطائها ، وبالمقابل تتحول هذه الحياة الجميلة الى خراب ودمار وموت . وأكبر الظن ان هذا الرجل يتحدث عن حال العراق والبلاد الاسلامية . إذ تحولت من العزة والكرامة الى أمة تنهش بها ضباع العدوان والدمار . وغدت أمة بائسة ضعيفة

قد سيطر عليها الاعداء ودمروا كل شيء جميل فيها ، واستعمال رمز الطفولة إنما يشير الى شباب هذه الامة ومنعتها . وبهذا يندفع ما توصل اليه الدكتور علي عباس علوان من حكم قاس على الادب العراقي في انه تقليدي بحت لايصل الى درجة الابداع حتى مجيئ الشعر الحر (٢٠)

وحين يكتب الاستاذ العقاد بيتين من الشعر عن " فلسفة الالم " ينظر اليها الصدر اليها " بتفاعل " مما يدل على اطلاعه ومواكبته الحركة الادبية ، قال العقاد :

نعمة الاحساس ما برحت نعمة في طيّها نقمُ
لا يحس الفقدَ فاقدُها ونصيبُ الواجدِ الالمُ

وكلامه فيه مفارقة كتب على الشطرين ، يقول الصدر (من الشعر المنثور) :

حين تتلقى الطبيعة الحيوان
بيديها الحانيتين
وتسكب عليه
من عطرها الفواح
يفتح الحيوان عينيه
بنشوة وسرور
ليرى نور الطبيعة الطافح
ويسمع نغمها العذب
فيتلقاه بوجه صبوح
ويشرب من أنفاسها العطرة
بمرح بهيج

ثم ينقلب بين أحضان الطبيعة
من جمال الى جمال
يغدو ليأكل عشبا نظرا
ويروح ليشرب ماء قراحا
حياته نور راقص
لا تكدرها الأفكار
ولا يحزُ فيها ألم
فإذا قضى منها وطرا
ورعى من خيراتها ما يشتهي
أسلم الروح لواهبها
قرير العين
هادئ الضمير
أما الانسان
ذلك المخلوق المتفلسف
الذي يحيل الماء دما
والمطر ضبابا
والنغم نحيبا
فإنه يعيش بين قضبان المصيدة
التي نصبها لنفسه
وتعب في سبيل إيجادها

لأجل قتله

فليذق الانسان

من فلسفته هذه

ما شاءت له فلسفته

وليشرب منالقراح حميما

وليوري من العشب الاخضر نارا

وليستعمل ما أنعم اللّه عليه بفضله

من العقل والاحساس

في سبيل الموت والفناء

وليسلم الحياة راغما

في سجنه الضيق

العفن المهين

والحياة

ذلك العنصر الإلهي

الذي تغرد فيه البلابل

ويتراقص على مياهه نور الشمس

فليبق للحيوان !

يتقلب في أفنانه

ويتمتع بجماله

هانئا سعيدا

ومرحى للإنسان

وألف مرحى

وهذه القصيدة بعد تلك القصيدة بشهر واحد تقريبا ، ليناقش فلسفة الحيوان وفلسفة الانسان وشعور كل واحد منهما ، فالحيوان ينعم بطبيعة جميلة قد تكيف معها جسديا ، يأكل أعشاشها ويرعى من خيراتها ، وهو بعد كل هذا وذاك لايفكر ولا يصيبه نصب أو يكدر خاطره مكروه . ولا يزعجه أي أحد بأي نوع من الازعاج . وفي المقابل – وهنا يعود الشعر – الى جدلية اخرى وثنائية من ثنائيات الطبيعة فيقابل الحيوان بالانسان ، ويبين ان سبب تعاسة الانسان في " تفلسفه " فيكدر الماء بآثامه ليجعله دما ، وهو يستعين بفكرة محاورة الملائكة لله سبحانه وتعالى حينما أراد سبحانه أن يجعل الانسان خليفة في الارض عندها قال الملائكة : "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟" وكأنهم يعلمون شر هذا المخلوق وكيف لا يستطيع التحكم بغرائزه ، وهذا المخلوق يحول المطر ضبابا والنغم نحيبا على حد قول الشاعر ، يريد أن يقول – معتمدا على جدلية وثنائية مرة اخرى – انه يغير الامور من سعادة الى تعاسة ومن جيد الى سيئ . وهكذا وكأنه لايريد الاستمرار بحياة هانئة كحياة الحيوان . وهو بهذا الصنيع إنما يصنع لنفسه مصيدة يقع فيها نتيجة أعماله الشريرة . مع ان بإمكانه أن يعيش حياة هانئة لا كدر فيها ولا نصب . وفي آخر القصيدة ينتصر الشاعر للحيوان وللانسان معا . ورب قائل يقول : هذا معروف فما الجديد في الامر ، أقول إن الجديد هو في فهم الشاعر جدلية الحيوان والانسان وفي فهم جدلية الاحساس بالاشياء فلأن الاحساس نعمة – على قول العقاد – وهذه النعمة تؤذي صاحبها وتتحول الى نقمة ، هذه هي المفارقة ، يلح الانسان على نفسه و " يفلسف " الاشياء حتى يكون الثمن في بعض الاحيان

قتل نفسه – اي قتل انسان آخر من جنسه – وربما يعطي نفسه الشرعية في قتل الاخرين . والملاحظ على هذه القصيدة والقصيدة التي قبلها – وكل قصائد الشعر المنثور – لم تكتب على غرار القصائد ذات الشطرين وتعد من الشعر الاجتماعي البحت – وإن لامست أغراضه – ضمنا ، بل هي تدخل في النظر الى الحياة نظرة فيها جدليات وفيها ثنائيات وفيها ضديات لتكتمل – منها – صورة كلية أو صورة انتشارية تتألف من مجموع الصور الجزئية .

الخاتمة :

وبعد هذه القراءة في مجموعة أشعار الحياة يمكن إجمال نتائج البحث بالآتي :

- إن ما وصل الينا من هذه الاشعار يمثل جانبا من الحركة الشعرية في النجف ، وهي مواكبة للشعر العراقي والعربي ومتواصلة معها بتفاعل بيّن .

- بروز الشعر المنثور بقوة في هذه المجموعة بشكل أكثر شعرية من حيث الصور والافكار والرؤى .

- لقد غطت هذه المجموعة الحياة التي عاشها الشاعر وبشكل يومي أي ما يسمى باليومي والمألوف .

- كان عنوانها موفقا ، فهي فعلا مجموعة أشعار الحياة ، مع أن الصورة تبقى غير مكتملة ، إذ أن فقد أجزاء منها نتيجة دخول العساكر الى بيت السيد ونهب المخطوطة الاصلية .يعتم على الشعر المفقود ، ويعتم على جوانب مهمة من حياته الشعرية .

- إن وجود التشطير والتربيع والتخميس والتاريخ الشعري ، يؤشر على بقاء الشعر العربي تحت وطأة التقليد الذي ألقى بظلاله لقرون عديدة على حركة الشعر العربي واتجاهاته .

الهوامش:

(١) كتبت رسالة في شعر الفقهاء في العصر الاموي أغنتني التفصيل في هذا الامر .
(٢) طبقات فحول الشعراء : ٥٤ .
(٣) الشعراء / ٢٢٤ .
(٤) منهاج البلغاء ويراج الادباء : ٣٢٧ .
(٥) مجموعة أشعار الحياة : ١١ .
(٦) مجموعة أشعار الحياة : ٧ .
(٧) في لغة القصيدة الصوفية . د محمد هندي : ٢٣٤ .
(٨) ظ : شعر السيد رضا الهندي ، دراسة في الموضوع والفن ، ظاهر محسن جاسم : ٧٣ .
(٩) مجموعة أشعار الحياة : ١٧٨ .
(١٠) كتبت كلمة " حظورك " في مجموعة اشعار الحياة : خطورك .
(١١) مجموعة اشعار الحياة : ١٧٩ .
(١٢) م .ن : ١٨٠ .
(١٣) ديوان أبي القاسم الشابي : ٢٧ .
(١٤) الترياق الفاروقي : ٧٢ .
(١٥) مجموعة أشعار الحياة : ١٩٧ . وظ تخميسات للسيد الصدر في مواضع أخرى ومنها : ١٩٦ . وأيضا تشطير للعمري في : ٢٤٢ . وتخميس في : ٢٥٠ و ٢٥١ .
(١٦) مجموعة أشعار الحياة : ١٥٧ .
(١٧) م .ن : ٢٥٢ . وظ : الغدير في الكتاب والسنة والادب لعبد الحسين الاميني : ٢٤/٣ . والفكرة أخذها النصراني من الحديث الشريف ((أنا الشجرة وفاطمة فرعها وعليّ لقاحها والحسن والحسين ثمرها وشيعتنا ورقها وأصل الشجرة في جنة عدن وسائر ذلك في الجنة)) المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري : ١٧٥/٣ .
(١٨) مجموعة أشعار الحياة : ٣١٦ . وهناك أمثلة مشابهة من نظمه على التاريخ ، ظ : ٩٥ . وظ : ٩٦ . وظ : ١٠١ .
(١٩) مجموعة اشعار الحياة : ٤٠ – ٤٣ . وهناك شعر منثور اخر ، ظ : ٥٩ . وظ : ٥١ . وظ : ٤٨ .
(٢٠) ظ : خاتمة كتابه : الشعر العربي الحديث في العراق ، اتجاهات الرؤيا وجماليات النسيج .

المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم.

- تاريخ النجف الاجتماعي (١٩٣٢ – ١٩٦٨) د . عبد الرزاق شنين الجنابي ، مؤسسة ديموبرس للطباعة ، بيروت ،ط١ ، ٢٠١٠ م.

- حركة الشعر في النجف الاشرف وأطواره خلال القرن الرابع عشر الهجري (دراسة نقدية) د عبد الصاحب الموسوي ، دار الزهراء للطباعة والنشر ، بيروت ط١ ١٤٠٨ – ١٩٨٨ .

- الحياة الفكرية في النجف الاشرف (١٩٢١ – ١٩٤٥) د . محمد باقر البهادلي ، مطبعة ستارة ط١ ٢٠٠٤ .

- ديوان أبي القاسم الشابي ، دار الكتب العلمية . ١٩٧٣ .

- شعر السيد رضا الهندي ، دراسة في الموضوع والفن ، ظاهر محسن جاسم ، مكتبة الروضة الحيدرية ، منشورات النجف الاشرف عاصمة الثقافة الاسلامية ، النجف الاشرف ،(د .ط) ٢٠١١ .

- الشعر والشعراء ، أبو محمد بن قتيبة الدينوري ، حققه الدكتور عمر الطباع ، دار الارقم بن أبي الارقم ، للطباعة والنشر . بيروت . ط١ ١٩٩٧ .

- طبقات فحول الشعراء ، ابن سلام الجمحي ، تحقيق محمود محمد شاكر ، دار الكتب العلمية ، ٢٠٠١ .

- الغدير في الكتاب والسنة والادب ، عبد الحسين العاملي النجفي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ط٣ ١٩٦٧ .

- مجموعة أشعار الحياة ، آية الله العظمى السيد الشهيد محمد الصدر(قدس) (د.ط) دار ومكتبة البصائر للطباعة والنشر ، بيروت . ٢٠١١ .

- المستدرك على الصحيحين ، للحاكم النيسابوري ، تحقيق مصطفى عبد القادر ، دار الكتب العلمية بيروت ط٢ ٢٠٠٢ .

- المفصل في تاريخ النجف الاشرف ، د . حسن الحكيم ، المكتبة الحيدرية ، قم المقدسة ، ط١ ١٤٢٩ .

الرسائل الجامعية

- شعر الفقهاء في العصر الاموي ، دراسة موضوعية فنية ، سهام كاظم جابر النجم ، اشراف الدكتور حاكم حبيب الكريطي ، كلية الاداب / جامعة الكوفة ، ٢٠٠٠ .